الحسناء

الجزء التاسع — المجلد الثالث

بيروت شهر حزيران سنة ١٩١٢

فيكتوريا كولونا

يلذ لي اليوم ، والله منه ان اكون صخراً ما دام الذل والشقاء محيطين على وجه الارض ،
ويسرني الا اسمع ولا ابصر ، فاحفظ صوتك وخطار ان توقظني — ميكيلانجلو بوناروتي

ميكيلانجلو بوناروتي من الافراد القليلين الذين صاروا على الارض كالهة تنعكس في نفوسهم تأثيرات الحياة والذين قد استخدموا المادة الباردة للتعبير عن شعورهم ونفخوا فيها من روحهم روحاً جعلتها اكثر حياة من الاحياء .

وهو اكبر نحات بعد فيدياس اليوناني المولود في القرن الخامس قبل المسيح وبعده لم تلد الرحام متفننين اعظم منه . وقد يدعي بعض المعجبين « بانموستر رودن » النحات الفرنساوي الشهير ويدعي هو ذاته بانه قد فاق ميكيلانجلو . لكن المستقبل العاقل يجعل كل واحد في مقامه

ميكيلانجلو اله النهضة الايطالية ولد في فلورنسة ١٤٧٥ ومات في رومية ١٥٦٤ وقد اشتغل لاربعة بابوات وبعث اعاظم الارض يطلبون من انعامه شيئاً . واستدعاه احد السلاطين العظام الى القسطنطينية لاجل بناء ما كان يحلم به من القصور والقلاع والجسور . وقد كان ابقاً مصوراً فرسم في « الكابلا سيستينا » صوراً باقية الى الآن لم يشاهد العالم قبل ولا بعد ما يشابهها .. ومهندساً فبنى من جملة ما بنى قبة مار بطرس الشهيرة احدى عجائب الكون . وشاعراً فتغنى بمكنونات قلبه مما كان قلبه يطفح به من الشعور . وفيلسوفاً فعاش مسيحياً بسيطاً متواضعاً معتزلاً .. وقد احب ايضاً ومثلما كان في جميع اعماله عظيماً فقد كان ايضاً في حبه عظيماً .

وبين الافراد النوابغ النادري الوجود في الانسانية الفضيلة الذين يظهر فيهم الخالق مجده وقوته كي يعيش في انسانيتنا الايمان بالوهيته قد حفظ التاريخ من ميكيلانجلو ما

فكتور هوجو

ميكيلانجلو بوناروتي

يجعله نفراً وموضوع اعجاب لابناء المستقبل . مع ذلك ورغما عن الف قصة يعرفها عنه الملايين من الناس من يمكنه ان يحيط علما بشخصيته الفنية ؟ . ان الناظر الى تماثيله وصوره يرى امامه رسوماً جبارة كانهم منقضون على الارض . فعلى ملامحهم وفي حركات اجسادهم وملابسهم وفي مجموع كيانهم يوجد قوة وعظمة الجبارة . وما هي الا نفس ميكيلانجلو الذي قيل عنه انه لم يضحك في حياته مرة واحدة .

ففي ناظر المركيزة فيكتوريا كولونا على عواطف اكبر المفكرين فخر للنساء لذلك اقتصر في هذه المجلة الحسناء على ذكر شيء من ذلك التاثير . ومن يرغب في الاطلاع فليرجع هي الى سنة ١٥٤٠ وهذه المرة الى مدينة رومية العظمى .

اليوم هو من ايام الربيع وهذه الايام جميلة في كل مكان ولاسيما في رومية حين يذيب العشب والزهر بين انقاض « الفورم » وقصور القياصرة . فيعود الامل الى قلب الانسان بعد ان يكون اليأس قد استولى عليه من نظره زوال المجد و يشعر بانه ليس مهملا على الارض وان الطبيعة لا تزال حية .

ومنذ بضعة ايام وصلت الى رومية سيدة عمرها خمسون سنة من اشهر سيدات ايطاليا واوربا جميلة ذكية عالة شاعرة متدينة ومتحلية بجميع الفضائل التي يمكن ان تتحمل بها المرأة . هذه السيدة هي المركيزة فيكتوريا كولونا ١٤٩٠ — ١٥٤٧ من اسرة شهيرة تنع فيها بابوات عظام وقواد كبار . وكان زوجها قد قتل في ساحة الحرب وهي لم تزل في ربيع عمرها . فاعتزلت العالم متناسية عظمة ماضيها واصبحت مثالاً للتقى المسيحي الحقيقي ولم يعد قلبها متعلقاً الا بالسيد المسيح ومطالعة الكتب الادبية . وكانت تتصدق كثيراً على الفقراء والفقيرات وتتغنى بالشعر عما يخالج قلبها من ذكرى رفيق حياتها ومحبة ابن مريم . حتى انتشر صيتها في عالم الادب وكانت لا تمر في مدينة الا وتتقاطر اليها المعجبون بها واقفين نفوسهم لخدمتها فتختار دائماً اقاهم وابسطهم واقربهم الى نفسها فتحادثهم عن الفنون واصحابها والحياة واسرارها والدين وجماله .

وقبل وصولها هذه المرة الى رومية مرت بمدينة فلورنسة وذهبت مع الشاعر « سفروتزي » واحد الرهبان الفرنسيكان لمشاهدة قبور امراء مديسي حيث يوجد تمثال « الليل » من نحت ميكيلانجلو الشهير لان الشعراء كانوا قد جعلوا هذا التمثال شهيراً بين اهل الادب . ولان فيكتوريا ذاتها كانت من المعجبين بميكيلانجلو اي باعماله لانها لم تكن قد شاهدته هو ذاته ابداً . بل سمعت عنه اخباراً متناقضة . وكانت اعماله وخصوصاً رسومه في

« الكالا سيستينا » تؤثر عليها تأثيراً غريباً ممزوجاً من الخوف والالم مقروناً بعظمة غير متناهية وشعور برفع النفس الى عالم ثان .. وكان يتراءى لمايكيلانجلو جهاراً انى من ذلك العالم الثاني ومثل روسوم هذه بعض ما يوجد هناك . فتشعر بحاجة الى التعرف به وبالشتداد وطأة العزلة عليها بين الناس ولما استحبرت عنه وصفوه لها كما كانت تراه في احلامه . قيل لها : هو رجل متكبر يحتقر الناس ويبغضهم . كله حسد وبخل وخشونة . وقيل لها ايضاً : هو رجل عادي بليد لا يحسن سوى الرسم والنقش

وقبل انتهائها مع الراهب والشاعر الى امام تمثال « الفيل » متفق الشاعر يمدح مايكيلانجلو ويعظمه ويسميه نصف اله ويقول ان اكبر فخر للفورانسه ان يكون قد ولد فيها ، فوافقه الراهب على كلامه واخبر المركيزه من جملة احاديثه انه ما كان سبب التسطنطينية استدعاء السلطان سليمان الثاني الكبير وسأله عن اكبر متفنن ومهندس في بلاده ولما سمى له مايكيلانجلو قال السلطان : قد بنى الي خير هذا الناحية وانا ارغب في قدومه الي ، ثم فوض اليه ان ينطلق الى فلورانسه ويزين له القدوم اليه مقدماً له من المال ما يختار ويحتاج ، واوعز الى احد وزرائه ان يمضي فيتفاوضه على الحدود ويعود به الى القسطنطينية

وكانوا قد وصلوا الى امام قبور امراء مديسي فلم تستطع المركيزة عن محدة غلبة مايكيلانجلو دعوة السلطان ، وشعرت الان بذلك التأثير الغريب المزوج من الالم واليأس والقوة كما كانت تشعر كلما وقعت عينها على صورة او تمثال من صور وتماثيل المعلم .. وشرع الشاعر يردد اشعاراً نظمها : (ان هذه « الليلة » التي تراها راقدة امامك على هذه الصورة نحتتها يد ملاك في هذا الصخر . ونومها دليل على انها حية . وان كنت مرتاباً في ذلك ايقظها تخاطبك .) فقالت فكتوريا : انها بالحقيقة كما تقول . وهذا الالم البادي على وجهها مع النكبة وهذه الحركة في جسمها ولا سيما في انخفاض راسها تظهر في نومها ان هذه الامرأة تخبيء في صدرها امراً هائلة . يا ليتني استطيع ان تكلم . فقال الراهب : الم تسمعي جواب مايكيلانجلو على هذه الابيات ؟ فاجابت : كلا ..) قال : يقول لي النوم والذ منه ان اكون صخراً ما دام الظلم والشقاء مخيمين على وجه الارض ويسرني الا اشعر ولا ايسر فاخفض صوتك وحذار ان توقظني ! »

وكانت السيدة تسمع هذه الابيات وهي شاخصة بالتمثال وكانها سامعة النفس الحائلة لما فيه انطق بذلك الكلمات . وشعرت بحاجة قوية الى تعزية هذه النفس الحزينة والى تسليتها .. وعليه فانها لما وصلت الى روميه هذه المرة كانت رغبتها في رؤية مايكيلانجلو

والتعرف به من اهم الاسباب الداعية لها الى زيارة المدينة العظمى

وكان بين اصدقاء المركيز في رومية كردينال ارتفى فيما بعد الى كرسي مار بطرس باسم البابا بولس الثالث . فذات يوم قال هذا الكردينال للمركيز : يسرني ان اسمعك تستفهمين عن ميكيلانجلو كل هذا الاستفهام . فانا احترم هذا الرجل اكثر من جميع الذين عرفتهم ولا يمكني ان اظهر لك بالكلام مقدار هذا الاحترام . فيوماً من الايام كنت بحالة يأس شديد من جراء حوادث المدينة وصغارة الناس . فدخلت الكابلا سيستينا وما لبثت ان اعادت رسوم ميكيلانجلو الراحة الى نفسي مع الثقة والقوة . ومرة ثانية استولى عليّ حزن مزعج فلم يزله سوى نظر تمثال العذراء الحاملة جسد ابنها الالهي . فهل تعرفين هذا التمثال ؟ هو موجود الان في كنيسة مار بطرس

— قد نظرته مرة واردة الآن ان اتطلعه كي ارى التأثير الذي يحدثه عليّ بعد مشاهدة تمثال الليل

وبينما هما ذاهبان لمشاهدة تمثال العذراء كان الكردينال يقول : ايها السيدة اني كما قلت لك لا يسعني التعبير عما اشعر به عند وجودي مع ميكيلانجلو . هو يشتغل هناك وراء هذه الكنيسة . يشتغل كانه محكوم عليه بالاشغال الشاقة . ولا تظني انه مفتقر الى الشغل . فهو غني وقد اغنى اخ له في فلورنسة وهو يحسن دائماً الى الفقراء بمبالغ كبيرة لكنه يشتغل مدفوعاً بقوة الابداع وقلما يستريح ليأكل ولا ينام الا قليلاً دون ان ينزع ثيابه او يخلع حذائه

— هذا عجيب ! وهل له اصحاب واصدقاء ؟

— كلا بل هو سيء الظن بالاصدقاء والاعداء . مخاف كانه الصغير . كثير التردد . ومع ذلك فاني اوكد لك ان احسن وقت واجمل فرصة لدي هي حين اذهب وحدي لزيارته فاشاهده يشتغل واحاول محادثته فيجيبني بايجاز وبساطة . ليتك تعلمين ما هو عليه من البساطة في الفهم والعمق في الافكار . معيشته معتزلاً جعلته ولا شك ينظر مشهد الحياة اشد وضوحاً واكثر جلاء

— وكيف تتراءى له الحياة ؟ وكيف يراها واضحة ؟

— له ثقة كبيرة بفنه وايمان . ويظهر ان ما يبدعه يقضي له حاجات نفسه ومطالبها . ولكن لا ادري كيف ابرهن لك عن ذلك

— هذا عجيب ! وما هي حاجات نفسه ومطالبها ؟

وكانا قد وصلا الى امام القاتيكان وشاهدا الاحتفال المقدسة فوق بناء كنيسة مار بطرس كانها غاية على قمة جبل . فقالت فيكتوريا : وهل لا تكمل ابداً هذه الكنيسة

— نعم ستكمل .. ستكمل يوم يفوض الى ميكيلانجلو اكمالها

— وهل هو يحسن الهندسة ؟

— نعم هو يفهم الهندسة . وهذا الميكل هو خارج عن خطوط الهندسة الفيزيقية التي يشتغل فيها عقل الاختصاصيين . هو فكر عظيم للدين المسيحي لا يقدر غير ميكيلانجلو ان يعبر عنه بفصاحة تليق به . هكذا الا افتكر !) فابتسمت فكتوريا وقالت — وهل تفوض نيافتك اليه العمل اذا جلست يوماً على كرسي مار بطرس ؟

الان هما واقفان امام تمثال العذراء وهي حالمة بخشعة وعلامة حاملة على ركبتيها ابنها الالهي بعدما انزل عن الصليب . بعد سكوت قليل قالت فيكتوريا — اي حزن لا يزول عند التأمل بهذه الام الحزينة على ابنها ! سبحان الخالق الذي يهب الانسان مقدرة على ابداع ما يعبر عن بعض كلاته بهذه الفصاحة ، واي شيء اصبح من ملامح مريم ؟ البنت هي امّاً وعذراء، وحزينة وهادئة . وهذا الجسد الرباني هل يمكن ان يكون غير جسد اله وانسان ومبتٍ وحي ! فليتمجد الخالق !

— يزعم البعض ان العذراء تظهر صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها مع ان جسد المسيح يظهر حقيقة في الثالثة والثلاثين

— ولا شك ان هذا عن قصد من مبدعها ! وهذا التمثال قد اظهر لي اكثر من غيره نفس الرجل كما هي وكما احب ان تكون . نعم الان يخال لي اني اعرف ميكيلانجلو من زمان طويل . الآن اشتفي من قلق قلبي معرفته .. فهل تعلن ..

في احدى زوايا الكنيسة خلف عمود من المرمر بقرب التمثال كان رجل في نحو الخامسة والسبعين من عمره قوي البنية مرتدياً ثياباً بسيطة فاقدة واقفاً في نصف ظلمة تحجبه عن عيون الناظرين . وقد عرف الكردينال امكانه ، بتقدم نحوه ليوجد السيدة معه بل تجذب نظره وظل واقفاً يسمع احاديثهما . ولما ابتدأت السيدة تتكلم عن اتمثال ذكاء وشعور تسارعت دقات قلبه . ولو قدر لاحد ان يتأمل في ملامح وجهه لاخذه العجب من التأثير البادي عليها . فكان تارة يتبع الاحمرار وجهه مثل ولد صغير وتارة يبتسم ابتسامة الرضى كانه حصل على السعادة . ولكن لما سمع الكردينال يقول السيدة : غداً اذهب بنفسك اليه . وسابعث من يليه الى زيارتك له . وعندي ان الافضل ان لا تتعرف بذهابك اليه لئلا

يستنكر و يتعمد التغيب

لما سمع ميكيلانجلو هذا الكلام اضطرب وتولاه حزن مؤلم . حتى ان صديقه المدعي بفهم افكاره لم يفهمه بعد ! بل بسبب الظن به نوعاً ما . ولا يعلم ان نفسه تشعر بحاجة قوية الى معرفة هذه النفس التي طالما حلم بوجودها

وخرج من الكنيسة بعد انصراف الزائرين وصار وهو مطرق الى الارض وقد ابتدأ الظلام يسدل ستره على كل المدينة

ولما وصل الى محله كان قد نسي زيارة الغد بل اوصله الافتكار بها الى امر آخر اهم وهو مسألة القبر . فجر البابا يوليوس الثاني . وكان يوليوس اول من وثق بقوة المعلم وطلب منه ان يعمل له مدفناً بفوق اهرام القراعنة ومدفن الامبراطور ادريانوس . لكن الحظ لم يسمح لهذا الجبار بتحقيق . وتذكر ميكيلانجلو ذلك التهوس الذي تهوسه والامل الذي علل النفس به والرسم الذي صنعه : اربعين تمثال من الرخام يمثل فيهم كلما يريد من القوى ! كانت مزمعة ان تنصب على جوانب المدفن . وتذكر اشتغاله باستخراج الرخام من مقالع (كراره) مدة سنتين بلا توان . وكيف تغير بعد ذلك فكر البابا وكيف مات وكيف ابتدأت مأساة القبر تتمثل فيها المصائب مدة اربعين سنة . وكان الالهة تغار من الناس لما يأتون عملاً عظيماً فتبلبل السنتهم تارة وتارة تسلط عليهم البرابرة وتقطعة من الجليد مائة على سطح البحر تفرق اكبر سفنهم . اقام ورثة البابا يوليوس الدعوى على الدعاوى على المعلم . وقام البابا لاوون العاشر بلبيه عن تتميم المدفن بتشغيله اياه باشياء غيره . ومع ذلك لم يزل ذكر يوليوس المقرون بذكر القبر يعود من حين لآخر فيملأ مخيلة ميكيلانجلو وذلك كل مرة يتأثر من شيء خارجي وتتراءى له الحياة كلها بلمحة واحدة

الان وصل الى محل شغله ونظر في احدى جوانبه تمثالاً كبيراً يمثل رجلاً جالساً ملتفتاً قليلاً لجهة الشمال مفتكراً ماسكاً بيده اليمنى (الواح الوصايا) وباليسرى جامعاً شعر لحيته على صدره كرجل تعب وهم . ويكفي النظر اليه لحظة حتى يشاهد الناظر قائد العبرانيين موسى كليم الله ! : وهذا واحد من الاربعين تمثالاً ! فتكاثرت على المعلم الهواجس واراد ان يصلي فلم يتمكن من جمع افكاره . فقام واوقد سراجاً واخذ مطرقة وازميلاً واقترب من تمثال موسى وبعدما نظر اليه قليلاً شرع ينحت فيه متكلاً ما بقي غير منكل : وكانت كل خربة تكسب الرخام حياة ونضارة . وصارت ضربات المطرقة تبعد عنه الهواجس وتجعل في الهواء موسيقية غريبة اعادت الى روح المعلم بعض الراحة . وكان نشاطه واندفاعه يزدادان شيئاً

فتبدأ فتارة كان يتباعد ويقف متأملاً بالتمثال ثم يقترب منه يهدو فيلمس الرخام وينحت فيه قليلاً ثم يتباعد ويرفع المصباح ويتأمل . وتارة يهجم عليه وكل عزم بضرب الازميل بالمطرقة فتطاير قطع الرخام وتتساقط في زوايا المحل . ولما تباعد مرة للنظر اليه بهت قليلاً كأنه يحادث به ولا يظهره . ثم ترك المطرقة والازميل من يده واخذ ورقة وكتب عليها شعراً : كلما يمكن الفنان ان يتصوره هو كامن في الرخام ولا يستخرجه الا اليد الخاضعة للفكر . فكيف يستطيع ايتها المرأة الجميلة الشريفة والاهية الخير الذي ارجوه والشر الذي ابتعد عنه . لكن حظي هو معاكس لامالي وهذا ما يذيقني مرارة الموت . وليست شكواي من الظروف او الحظ او الحب ولا من قساوة قلبك او جمالك الفتان . . . حين تقدمين لي معاً في قلبك الموت والحياة فلا تهيب قوى عقلي القاصرة سوى الموت !)

ثم رجع فاخذ المطرقة والازميل واقترب من موسى وانار اليه بمحبابه لا زال مشهيجة وخاطبه قائلاً : موسى ! موسى ! لماذا انت صامت ؟ تكلم ! واضربه على ركبته بالمطرقة فدوى في المحل صدى الضربة ثم تلاشى كنغمة موسيقية بعيدة . فجلس المعلم على ركبة التمثال ينحت خصل شعر لحيته مما لا يقتضي اعتناء كبيراً لكن افكاره كانت تحوم في فضاء اوسع من سماء المحل . . في هل يأتي محامٍ الكردينال ؟ الى ان تعبت يداه وشعر بالعطاس فقام الى الصباح دون ان يخلع حذاءه او ينزع ثيابه كانوني عادته .

وفي الغد جاء شاب فقير الحال كان ميكيلانجلو يشفق عليه واستخدمه عنده في البحث ومعه كتاب لمعلم من ابن اخ له في فلورنسه ورزمة فيها ثلاث قمصان جيادة وازرار فاتي خمر و ٨٦ تفاحه . . وكان الكتاب طويلاً بخط خط جداً حتى ان المعلم رمى به بضجر مرات قبلما اتى على آخره . ثم اوصل فاتي الخمر و ٣٦ تفاحه مع الشاب الى قصر الفارنيزيان هدية للبابا وجلس يجاوب ابن اخيه . . (كل مرة يعطني منك كتاب لا آتي على آخره الا واخذني الحمى واصابني صداع من جرى خطك العاطل ! ثم انك تكتب لي كل مرة لتخبرني خبراً زهيداً . الا تدري اني مشغول بانباء اعم من اخبارك ؟ تستخبرني في مسألة زواجك : فهذا امرٌ لا يعنيني مطلقاً . ولكن اقول لك انك تحتاج الى امرأة تكون لك نجيبة وتخضع لامرك ولا يكون دونها حب الزينة والاعراس والرواح والمجيء . فقبل كل شيء ابحث عن اداب الفتاة واداب اهلها وصيتهم الحسن . والصحة الجيدة للنفس والجسد . وما عدا ذلك فلا اهمية له . »

وكان الموضوع قد انجزه فتعهض يشتغل في رسم الاشخاص المعدة للدبلونة الاخيرة .

الى ان رجع الشاب الفقير وابتدأ ينحت في قطعة رخام وهو يخبر المعلم انه بينما هو مارٌ اوقفه كردينال ومعه سيدة وسأله هل يشتغل المعلم في محله

فقال له ميكيلانجلو : وماذا جاوبت ؟) — قلت لا اعرف . وقد اوصاني الكردينال ان لا اذكر لك شيئاً من ذلك . وبعد ان ساعتني السيدة عن عائلتي وعلمت ان لي شقيقتين في العشرين والثالثة والعشرين . من عمرهما قالت لي : ولماذا لم يتزوجا ؟ فقلت لانهما فقيرتان باعتدائي . فرق قلبها وقالت لي : جئني بهما غداً فاجعلهما غنيتين

فقال المعلم : — ولماذا لم تذكر لي شيئاً عنهما الى الآن ؟ — لانك لم تسألني ابداً عنهما

وبعد قليل جاء رجل لابساً لباساً يدل على انه من النبلاء . فسلم بخجلاء وقال : اهنا محل اقامة ميكيلانجلو ؟ ثم اردف كلامه قائلاً : ارسلني اليه سيدي الامير الذي اوصاه بعمل صورة ابنته الاصلها وارسلها اليه وسيبعث بعد ذلك بالثمن الذي يراه موافقاً

فاحتقر المعلم الصورة فنظر اليها الرجل باحتقار ثم قال : هذا شيء ثانه وزهيد الا يوجد عندك اهم منه . ونظر الى ميكيلانجلو بازدراء قائلاً : انت ماذا تعمل هنا . فبهت المعلم قليلاً ثم اجاب : الا تاجر ! وسار نحو الباب وهو يشير للرجل ان يخرج بينما الفتى الفقير يضحك ويقول بصوت واطي : اذا كان سيده مثله ! ولما عاد المعلم قال للشاب : خذ هذه الصورة الى البريدي الذي جاء منذ اسبوع ودفع عشرة الاف فرنك واقبض منه الثمن واجعله باتة لشقيقتيك واذ رجعت الى هنا يمكنك ان تشتغل وحدك لاني ذاهب الان واياك سؤالك عني فقل لا اعلم اين هو

فخرج الشاب فرحاً . اما ميكيلانجلو فجلس على مقعدة صغيرة بكمل جوابه لابن اخيه (قل لمكاهن ان لا يكتب لي ابداً : ميكيلانجلو النحات . لاني معروف فقط باسم ميكيلانجلو ونارو تي . واذا كان يريد حفر ته صورة المكتبسنه فليفاوض مصوراً من المصورين لاني لست مصوراً ولا نحاتاً . ورغماً عني قد تقيدت بخدمة ثلاث بابوات . ثم انك لا بد من ان تكون تعرف اسرة فقيرة بن اسرة فلورنسة العريقة في الشرف فارجو منك ان تدفع بطريقة سرية جداً الالفي فرنك المرسلة اليك على اني احب ان تكون هذه الاسرة من اللواتي فيهن بنات في سن الزواج .) ثم فتح المكتبة واخذ كتاباً صغيراً وخرج من محله متوجهاً نحو (البلاتينو) حيث يوجد خرائب قصور القياصرة . وهناك جلس في ظل احد الاعمدة وفتح الكتاب الصغير وشرع يقرأ في الكوميدية الالهية للشاعر دانتي فابقية

بهاء